

# رنين الفجر على الأرض

للشاعر السوري: عبدالرحمن عفيف

عبداللطيف الحسيني - عامودا

مفاجأة، حين نقرأ تطوّراً عميقاً في مجموعتين لشاعر واحد، ولم يمضِ بينهما عامان. كما عند مجموعة عبدالرحمن عفيف الأولى «نجوم مؤلة تحت رأسي». ومجموعته الأحداث «رنين الفجر على الأرض» عن سلسلة مجلة (حجلنامة) التي يرأسها الشاعر السوري: محمد عفيف الحسيني. في «نجوم مؤلة تحت رأسي» عوالم مدن غائبة، أو غيّبتها كتابة الشعر عنها. وكأنه أراد أن يللم أجزاء تلك المدن المضّة والفضوية، فكتب عنها بمضّ وفضوية أيضاً. فكتابه عن أستدراج المدن جعلته أن يطارد بقاياها. فما كان منه إلا أن يرى ضياعها، وتشتتها، ثم ضياعه وتشتته في التعبير عنها. غير أن ما بقي من المدن كان الأمر والمحزن والنبيل. وأظن أن من يتناول مجموعته «نجوم مؤلة تحت رأسي» أن يأخذ بحسابه ذلك الثالوث: الأمر والمحزن والنبيل». كي يستطيع أن يحاكي المجموعة من خلاله. وبالتالي سوف يرى المتابع أن الشعر غازياً ومغزواً بان.

«لو بكيتُ أمام عينيكِ الجميلتين، لو هممتُ أن أكون أبعد عنك،

وفاقداً شخصيتي دونك، أمي لعلني سأنام الليلة أيضاً تحت شراشف النجوم.

هكذا معزولاً تحت هذا السطح الأسمتي الواسع المغبر» (نجوم مؤلة).

لم تبق من المدن المعبرة عنها سوى الأمر. ومن الممكن أن يكون نفسه تلك المدن، فتصبح الأشياء العابرة والهامشية كلاً واحداً. حتى تبدو لنا



وكأنّ هذه الأشياء هي المدن نفسها:  
«المقابر، الشحاذون، الأصققاء،  
الشوارع، الحب، الصباح المستحيل».

وبظني أن المدن تعرف من خلال هذه الأشياء الهامشية التي تدخل في صميم الكائن الشعري، ودونها يفقد الشعر بهاءه. أو يفقد الشعر شعريته. لأن الشعر يكون عندما لا يكون الشيء موجوداً. أو أن الشعر يعبر عن شيء مفقد. حتى يكون ضمنه أو داخله ليستنطقه، ليتحدثا مع بعضهما وجهاً لوجه، أو وجهاً غائباً لوجه غائب. وهذه معادلة صعبة، بل مستحيلة.

إذا كان الشعر السوري الراهن لم يتعدّ سابقه أو حتى أوائله: نزار قباني، الماغوط، أدونيس، أقصد أغلب الشعر السوري الراهن لا كلاً. لأن ثمة تجارب شعرية أقل ما تصف بـ«الحالات الداخلية» المعبرة عنها شعرياً. وسوف أظن الآن أنّ تجربة: عبدالرحمن عفيف من هذه التجارب التي تصف الأشياء والحالات ولا تكتب عنها، أو تعبر عنها. بل تكتبها وتعبرها. وأظن أيضاً أنّ العملية الإبداعية هي هذه برمتها: أن نكتب الحالات والعوالم، لا أن نكتب عنها ونعبر عنها؟ وأظن أن القاريء يعي تماماً ما أعنيه تجاه «رنين الفجر على الأرض». وللتوضيح أقول: أن كتابة الحالات الإنسانية الأليمة منها، والمفرحة لا تقول بقدر ما نحن نحركها، لنقولها ونكتبها. وذلك لا يأتي إلا بقدر تفاعل وافٍ وكثيف على «علم النفس»: علم النفس الأشياء الهامشية أو المستحيلة التحدّث أو التمتمة «الحالات المستحيلة للإنسان

ليعبر عنها. لذلك فـ«رنين الفجر على الأرض» تغري بالقراءة، قراءة لا الشعر فيها فقط. بل قراءة الحالات والأمكنة والغربة والحب.

الحدث الآخر المهم في «رنين الفجر على الأرض» هو موقع الزمن، حيث يبدو مفتتاً ومشظياً. وبأنه مقصود الآن أو غداً أو مستقبلاً. لأن الحالة العشوائية مستمرة معه. كما كانت معه سابقاً وسوف تبقى معه. كما تقول قصيدته: «وداعاً لي»:

«شكراً لأمنية غداً

شكراً لأمنية أخرى قبل خمس سنوات

شكراً لأمنية اليوم.

شكراً لأمنية في المستقبل».

ولو نظر إلى «رنين الفجر على الأرض» من هذا الموقع «موقع الزمن» لكان إضافة أخرى إلى جماليات الشعر في المجموعة. وللتذكير ان المقطوعة السابقة مقطوعة ومفتتة من قبلي، لأحسّ قراء المجموعة على أنها تخبيء تفتيت الزمن بداخلها.

أنّ كتابة الشعر عند«عبد الرحمن عفيف»- اجمالاً- تحاكي الجنس والبراءة والطفولة والحرية، ويلمس ما يقرأ فيها، ويسمع ما يلمس. ومن هنا كانت هذه المجموعة تطفح شعراً وصمتاً، مما جعلنا نخاطب أحداثها وبطل المجموعة العاشق القلق والمهزوم. لكن الشجاع.

لذلك فـ«رنين الفجر على الأرض» تعبير عن ما هو أساسي في الحياة. خاصة «نوستالجيا الطفولة» التي تأخذ بمتابعتها على أنها طفولة مقيدة. وهذا

القيد يفضي إلى المكان الذي عاش فيه الشاعر ويعيش فيه من خلال الشعر. المكان الحقيقي الذي يكبت الطفولة وحريتها وفوضاها، ولأن الطفولة هي هكذا، فسوف تتفجر في السنين اللاحقة شعراً. ولأنها قيدت زمناً فسوف تأخذ حرّيتها لاحقاً، لتقول الطفولة بعنفٍ وشراسةٍ، وأحياناً بثورة شعرية:

«على الأقل كنت تركت خيطاً على شفتي

على الأقل هشمت في صيفاً خاصاً بك

على الأقل كنت سكنت في اصابعي

على الأقل كنت غنيت صباحاً حزيناً

لأجل جثتي».

لكن ثمة سؤال هام: ماذا يبقى معنا بعد قراءة «رنين الفجر على الأرض» فالشعر عند «عبدالرحمن عفيف» إحالات وأصوات وعوالم تعفّ قراءاتنا السابقة. وتجعلنا نحفظ من الشعر -الشعر السوري هنا- على أنه حاكي كثيراً سابقه ولأن طبيعة المحاكاة ضرب من التشنت، وبالتالي الضياع في تجارب الآخرين. لأجل ذلك تحسب «رنين الفجر على الأرض» التجربة الأعمق في هذا الشعر- وان تجاوزت الشعر السوري- ثمة تداخل من نصوص «رنين الفجر على الأرض» مع تجربتي الشعر العربي النثري الأعمق: بسام حجار وعباس بيضون.

هامش:

المزيد حول تجربة بسام حجار وعباس بيضون راجع مقالنا في جريدة «الكفاح العربي» بتاريخ ٢٠٠١/١١/٣.